تَجَلّي مَظَاهِرِ الفَقْـرِ الاجْتماعِيَّة
فِي شِعْرِ أبِي الشَّمَقْمَق

أ.م.د. صَلاح حسُّون جبَّار العُبَيديّ
جامعةُ القادسيّةِ/كليّةُ الآدابِ
الأدبُ العربيُّ القديمُ/الأدبُ العباسيّ
Salah.jabbar@qu.edu.iq

الخُلاصَـــــةُ:

تناولَ البحثُ ظاهرةً اجتماعيّةً برزَتْ بصورةٍ جَليّةٍ في شعرِ أحدِ الشعراءِ **العباسيّينَ**، وهيَ ظاهرةُ الفقرِ في شعرِ مروان بنِ محمّد المُلقّب بأبي الشَّمَقْمَقِ، فالميزةُ المهيمنةُ في شعرهِ هيَ تجسيدُ الواقعِ المريرِ الذي عاشَهُ وصياغةُ ذلكَ في صورٍ شعريةٍ صادقةٍ ومُعبّرةٍ عنِ الإحساسِ الحقيقيّ بالفقرِ مِنْ خلالِ مظاهرِ: الطرافةِ والحزنِ والسُّخريةِ، لذلكَ لا نبالغُ إذا قُلْنا إنَّ أبا الشَّمَقْمَقِ مِنْ أبرزِ شعراءِ عصرهِ تعبيراً عنْ مَساوئ الفقرِ وتصويراً لطبقةِ المجتمعِ الدنيا، وكأنَّ شعرَهُ ثورةٌ ساخرةٌ ممتزجةٌ بالحزنِ والطرافةِ.

وقدْ قصَدْنا في المُقدّمةِ-قبلَ البدْءِ بدراسةِ مظاهرِ الفقرِ وملامحهِ الفنيّةِ عندَ الشاعرِ- عَرْضَ أخبارهِ منْ خلالِ بيانِ: اسمهِ وكُنيتهِ ولقبهِ، ونشأتهِ وحياتهِ، وأخبارهِ معَ شعراءِ عصرهِ وغيرهِمْ، ووفاتهِ، وبعدَ ذلكَ اشتملَتِ الدراسةُ على ثلاثةِ مباحثٍ ذكرَتْ أبرزَ المظاهرِ الاجتماعيةِ للفقرِ في شعرِ أبي الشَّمَقْمَقِ، وهيَ: الأولى- صورةُ الفقرِ الطريفةُ، والثانية- صورةُ الفقرِ الحزينةُ، والثالثة- صورةُ الفقرِ السّاخرةُ، وقد وجّهَتْ شعرَ أبي الشَّمَقْمَقِ للتعبيرِ عنْ تلكَ المظاهرِ الاجتماعيةِ للفقرِ وتصويرِها أدَقَّ تصويرٍ.

المُقدِّمَـــــةُ:

غيرُ خافٍ في حقول الدراسات إنَّ الفقرَ ظاهرةٌ سايرَتِ المجتمعات الإنسانية على امتداد العصور، وقد أسهمَ ذلك فيما بعد في تبلور التنوع الطبقي بين أبناء المجتمع نفسه، ومن الطبيعي أن تطرق هذه الظاهرة أبواب الشعر ليكون مرآةً ترسم صورة المجتمع وأحواله، كما هو الحال عند شعراء الجاهلية الذين عرضوا في أشعارهم مختلف قضايا الإنسان وهمومه ومنها: ألم الجوع

والفقر[١]، ولِعُمق ظاهرة الفقر في حياة المجتمع ومسايرتها له منذ القِدم؛ وجدنا النص القرآني الكريم وهو يشير إلى هذه الظاهرة في العديد من المواضع المتعلقة بالضوابط التشريعية لطبيعة المجتمع وأحواله[٢].

وقد أشرنا سابقاً إلى اثر عامل الفقر في نشوء التباين الطبقي في المجتمع، ولاسيما في العصر الأموي واستفحال ذلك الأمر في العصر العباسي، وهذا ما ذكرهُ المؤرّخونَ من بلوغ الوضع الاقتصادي حالة التَّرَف وما يشاركه من البذخ والعطاء المسرفَينِ في ظل بلاط الأمراء والوزراء، ويقابل تلك الأوضاع طبقة فقراء المجتمع وهي الفئات التي تعاني ألم العوز والحرمان[٣]؛ لذلك استفرغَ الشعراء الذين أصابهم الفقر قسماً كبيراً من أشعارهم في وصف فقرهم وبؤسهم وسوء أحوالهم وما كانوا يرزحونَ فيه هم وأولادهم من ضيق العيش والحرمان الدائم[٤]، وفي ضوء ما سبق توجّهَتْ هذه الدراسة إلى أحد أبرز الشعراء العباسيّينَ الذين عبّروا عن ظاهرة الفقر في شعرهم، وهو: (أبو الشَّمَقْمَقِ)، حيث إنّ((أكبر شاعر صوّرَ محنة البؤس في هذا العصر: أبو الشَّمَقْمَقِ، وكان يحتسي آلامَهُ المُرّة في صبر بالغ، حتى قالوا إنّهُ كان لا يُفارق منزله الأيام تلو الأيام، وكان لا يُرى إلّا في أطمار بالية))[٥] .

وأبو الشَّمَقْمَقِ[٦]، هو لقب الشاعر: مروان بن محمد،المُكنَّى بأبي محمد[٧]، أما ما يتعلّق بحياة الشاعر، فلم يرِدْنا منها إلّا اليسير، فقيل عنهُ: إنّهُ خُراسانيّ الأصل، وقد نشأ في البصرة وقضى قسماً من حياته في بغداد التي كان يتردد إليها في أيام هارون العباسي[٨]، وفي إشارته إلى موطنه يقول[٩]: {مجزوء الرمل}

أنـا بالأهـــــوازِ مَحْـــــزُوْ نٌ وبـالبَصْـــــــــرَةِ دارِي
في بَنـي سَعـــــدٍ وسَعـــــدٍ حيثُ أهلِـــي وقَـــرارِي

أمّا أخبارهُ مع شعراء عصره، فقد عُرفَ عنه مُجاراته لهم بألوان من الطرافة والسخرية والهجاء،ومن هؤلاء الشعراء:((بشار بن برد، وأبو العتاهية،ومروان بن أبي حفصة، وأبو نواس،وبكر بن النطاح، وأبو حنش خضير بن قيس، وهجا يحيى بن خالد البرمكي))[١٠]، ويبدو أنَّ أبا الشَّمَقْمَق كان سَيّء الحظ، فقد لازَمَهُ الفقر طيلة حياته فجسّدَ ذلك في شعره الذي وصف فيه نفسه وعياله وحال بيته المُتهاوي الذي افتقر إلى أبسط أسباب الحياة[١١]،ولم يُفارقه ذلك الحال حتى وفاته سنة(١٨٠هـ)[١٢].

ولمّا قرأنا شعر أبي الشَّمَقْمَق الذي عكس واقع حاله المرير، وجدنا أنَّ تعبير الشاعر عن فقره لم يكن في نمط واحد، وإنما صوّر ذلك الحال من خلال ثلاثة مستويات، وهي(الطرافة والحزن

والسخرية)، وقد اعتمدنا نسخة ديوان الشاعر بتحقيق د٠واضح محمد الصمد، الذي بذل جهده في جمع شعر أبي الشَّمَقْمَق وتخريجه من مصادره وعمل الفهارس لديوانه، وانطلاقاً من ذلك تضمّنَتْ تلك الدراسة ثلاثة مباحث: **الأوّل**- مظهر الفقر الطريف، و**الثاني**- مظهر الفقر الحزين، و**الثالث**- مظهر الفقر الساخر، من خلال ذِكْر وتحليل النماذج الشعرية التابعة لكلّ مظهرٍ وجّهَ ذلك الشعر للتعبير عن ألوان الفقر الاجتماعية، وتصوير الطبقة الدنيا من المجتمع أدقّ تصوير.

المبحثُ الأولُ- مظهرُ الفَقْرِ الطريـف:

لعلّنا لا نبالغ إذا قُلنا إنَّ ظاهرة الفقر يمكن أن تكون في إحدى جوانبها مبعثاً لإثارة الطرافة عند الآخرين، فقد((تعمل الفكاهة على حدوث حالة من التطهير الجماعي للانفعالات السلبية المتراكمة بفعل أحداث الحياة السياسية أو الاقتصادية السيئة))[١٣]، وعندما نقرأ بعض أبيات شعر أبي الشَّمَقْمَق سنجد أنّهُ قد اعتمد فيها الأسلوب الفُكاهيّ الطريف للتعبير عن فقره، فقد كان الناس يتهافتون على جمع نوادره[١٤]، والأطرف ما في الأمر أنّهُ وظّفَ مشهد الحيوان ليرسم لوحة الفقر الذي حلَّ به مُغلّفاً ذلك بأجواء من الفكاهة، ومن ذلك قوله وهو يصف حاله المرير مع برغوث تعلّق به[١٥]: {من المنسرح}

يا طـولَ يومـي وطـولَ ليلتِـهِ فَلْيَـهْنَ برغوثُـهُ بِجَذْلَتِـهِ
قـدْ عَقَـدَتْ بَنْدَهـا على جَسَـدِي واجتهـدَتْ في اقتسـامِ جُمْلتِـهِ

ويبدو أن معركة طريفة قد حصلت بين أبي الشَّمَقْمَق وبرغوث، فكان الانتصار من نصيب أبي الشَّمَقْمَق، الذي ترك خصمَهُ مجدّلاً على الأرض بسلاح الأظافر الحادّة اللامعة! [١٦]: {من الطويل}

أَلَا رُبَّ برغـوثٍ تركْـتُ مُجَـدَّلاً بأبيضَ ماضِي الشَّفْرتَيْنِ صَقِيْلِ

ومن غرائب تصويره لفقره: حديثه الطريف مع الفأر الذي اتخذَ موضعاً في بيته[١٧]: {مجزوءالرمل}

أخـذَ الفـأرُ برِجْلِـي جَفَلُـوا مِنْهـا خِفَافِـي
وسَـرَاوِيْـلاتِ سُـوْءٍ وتَبَابِـيْنَ ضِعَـافِ
دَرَجـوا حولـي بِزَفْـنٍ وبِضَـرْبٍ بالدِّفـافِ
قلْـتُ: مـا هـذا؟ فَقالـوا: أنـتَ مِنْ أهـلِ الزِّفـافِ
ساعـةً ثُمَّـتَ جَـازُوا عـنْ هـوايَ في خِـلافِ
نَقَـروا إسْتِـي وباتُـوا دونَ أهلِـي فـي خِـلافِ
لَعَقُـوا إسْتِـي وقالُـوا رِيْـحُ مِسْـكٍ بِسُـلافِ
صَفَعُـوا نَـازُوْيَـه حَتّـى إسْتهَلَّـتْ بِالرُّعَـافِ

ويمكن أن نلتمس هنا الوظيفة الجمالية والإمتاعية للحوار على لسان الحيوان، ليس فقط تحقيقاً للغرائبية أو إدهاشاً للمتلقي، ، وإنّما ما يثيره ذلك الحيوان من شيوع روح الفكاهة القائمة على المُفارقة أو المُبالغة(١٨)، فقد أراد الشاعر من خلال خلق محاورته الطريفة مع الفأر، أن يصوّر حاله البائس في ظِلّ بيته المتهاوي، وكأنّهُ يرى أنَّهُ يتقاسم مع فئران بيته نفس الهموم في جوّ الفقر المغلّف بالطرافة.

ويبدو أنَّ أبا الشَّمَقْمَق لا يسأم من تصوير حالة فقره بأسلوبه الطريف الذي عهدناهُ عنده،فها هو ذا يُخبرنا عن الحوار الذي حصل بينه وبين قِطِّهِ البائس الذي جعل يُصارع الفئران، قائلاً(١٩):

{من الخفيف}

ولقدْ قلْتُ حينَ أجْحَرَني البَرْ دُ كما تُجْحِرُ الكِلابُ ثُعالَهْ
في بُيَيْتٍ مِنْ الغَضَارَةِ قَفْرٍ ليسَ فيهِ إلّا النَّوَى والنُّخَالَهْ
عَطّلَتْهُ الجُرذانُ مِنْ قِلّةِ الخيرِ وطارَ الذُّبابُ نحوَ زُبالَهْ
هارباتٍ منْهُ إلى كُلِ خِصْبٍ جيدةٍ لمْ يرْتَجيْنَ مِنْهُ بُلالَهْ
وأقامَ السِّنَّوْرُ فيهِ بِشَرٍّ يسألُ اللهَ ذا العُلا والجَلالَهْ
أنْ يَرى فأرةً فلَمْ يَرَ شيئاً ناكِساً رأسَهُ لِطُولِ المَلَالَهْ
قُلْتُ لمَّا رأيْتُهُ ناكِسَ الرَّأْ سِ كئيباً يمشِي على شَرِّ حالَهْ
قُلْتُ:صبراً يا نازُ رأسَ السَّنَا نِيْرِ،وعَلَّلْتُهُ بحُسْنِ مَقالَهْ
قالَ: لا صبرَ لي، كيفَ مُقامِي في قِفَارٍ كمِثْلِ بِيْدِ تَبَالَهْ
لا أرى فيهِ فأرةً أُنْغِصُ الرَّأْ سَ ومَشْيِي في البيتِ مَشْيَ خَيَالَهْ
قُلْتُ: سِرْ راشِداً فخَارَ لكَ اللَّـ ـهُ ولا تَعْدُ كُرْبُجَ البَقَالَهْ
فإذا ما سمعْتَ أنَّا بخيرٍ في نعيمٍ مِنْ عِيشَةٍ ومَنَالَهْ
فَائْتِنا راشِداً ولا تَعْدُوَنَّا إنَّ مَنْ جازَ رَحْلَنا في ضَلالَهْ
قالَ لي قولةً: عليكَ سلامٌ غيرَ لِعْبٍ مِنْهُ ولا بِبَطالَهْ
ثُمَّ وَلَّى كأنَّهُ شيخُ سَوْءٍ أخرِجُوْهُ مِنْ مَحْبِسٍ بِكفَالَهْ

فهذه القصيدة تُنبِئُ عن ذلك الحوار الفُكاهي الذي أجراهُ الشاعر مع القِطّ، ويُمهّد لذلك بحديثه عن بعض ملامح فقره، فقد أدخلَهُ البردُ إلى بيته بقسوة كما تُسرع الكلاب وراء الثعلب حتى يدخل جُحرَهُ، وأيّ بيت هذا؟ إنّهُ بيت صغير بائس خالٍ من أسباب الحياة، أصبحت تجول فيه الفئران والذُّباب هنا وهناك بلا هوادة إلى أن رحلتْ منه بعد عدم وجود أي شيء تأكلهُ، ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير حال القِطّ الذي سكن معه في بيته وشاركهُ هموم الفقر من خلال الحوار الطريف الذي خلقهُ الشاعر، فذلك القِطُّ أصابه الضجر والملل من كثرة وجوده في ذلك البيت البائس، ولم يجد طعامهُ بعد، فأخذ الشاعر يحاوره باتخاذ الصبر، إلّا أنّهُ لا طاقة له على تحمل ألم الجوع والفقر فأخذ يُبادر للخلاص من ذلك، وتتكرر هذه الصورة الحوارية الطريفة التي أوجدها الشاعر مع القِطّ وحال بيته الفقير(٢٠): **{من الخفيف}**

ولقدْ قلْـتُ حينَ أقفَـرَ بَيْتـــي مِنْ جِـرابِ الدَّقيـقِ والفَخَّـــارَهْ
ولقـدْ كانَ آهِـلاً غـيرَ قَـفْـــرٍ مُخْصِـباً خَـيْرُهُ كثـيرَ العِمَـارَهْ
فَـأرَى الفـأرَ قدْ تجَنَّبْنَ بَيْتـي عائـذاتٍ مِنْـهُ بـدارِ الإمـــارَهْ
وَدَعَـا بالرّحيـلِ ذُبَّـانُ بَيْتِـــي بيـنَ مَقْصوصَـةٍ إلى طيَّـــارَهْ
وأقـامَ السِّنَّـوْرُ في البيتِ حَـوْلاً ما يَرَى في جوانبِ البيـتِ فَـارَهْ
يُنْغِضُ الرأسَ منهُ مِنْ شِدَّةِ الجُوْ عِ وعَيـشٍ فيهِ أذًى وَمَـــرَارَهْ
قُلْـتُ لمَّـا رأيْـتُ ناكِـسَ الـرَّأْ سِ كئيباً في الجَوفِ منهُ حرَارَهْ
وَيْـكَ صَبـراً فأنـتَ مِنْ خيرِ سِنَّـ وْرٍ رأتْـهُ عينـايَ قَـطُّ بِحَـارَهْ
قالَ: لا صبرَ لي، وكيفَ مُقامِـي بِبُيـوتٍ قَفْرٍ كَجَوْفِ الحِمَـارَهْ
قلْتُ: سِرْ راشِداً إلى بيتِ جـارٍ مُخصِبٍ رَحْلُـهُ عظيمِ التِّجَـارَهْ
وإذا العنكبوتُ تغـزِلُ في دَنِّـــي وحُبِّـي والكـوزِ والقَرْقَـــارَهْ
وأصابَ الجُحَـامُ كلبِي فأضْحَـى بيـنَ كلـبٍ وكلْبَـةٍ عَيَّـــارَهْ

ومن شعره الطريف في تصوير حال بيته من خلال ذِكر الفأر وابن عرس، قولهُ[٢١]:

{مجزوء الرمل}

نـــزلَ الفـــأرُ بِبَيْتِـــي رِفْقَـــةً مِنْ بعـدِ رِفْقَـــهْ
حَلَقَـــاً بعـــدَ قِطـــارٍ نزلـوا بالبيـتِ صَفْقَـــهْ
اِبْـنُ عُـــرْسٍ رأسُ بَيْتِـــي صاعِـداً في رأسِ نَبْقَـــهْ
سَيفُـــهُ سَيـــفٌ حديـــدٌ شَقَّـــهُ مِنْ ضِلـعِ سِلْقَـــهْ
جـاءَنـا يَطْـرُقُ باللّيْـــلِ فَـدَقَّ البـابَ دَقَّـــهْ
دخـــلَ البيـــتَ جِهَـــاراً لـمْ يَـدَعْ في البيـتِ فِلْقَـهْ
وتَتَـــرَّسْ برغيـــفٍ وصَفـقْ نَـازُوْيَـه صَفْقَـهْ
صَفْقَـــةٌ أبْصـــرْتُ مِنْهـا فِي سَـوادِ العيـنِ زُرْقَـــهْ
زُرْقَـــةً مثـلَ ابـنِ عُـــرْسٍ أغْبَـــشٌ تَعلُـــوْهُ بُلْقَـــهْ

المبحثُ الثاني- مظهرُ الفَقْرِ الحزيـن:

لقد طرقَتْ ظاهرة الفقر الاجتماعية أبوابَ الشعر، فوجدَ الشعراء في أشعارهم ملاذاً يعبّرون من خلاله عن همومهم وأوضاعهم المريرة، وانطلاقاً من ذلك((كانت مشكلة الفقر أو مأساته مصدر إلهام لبعض الشعراء الذين يعيشون فيها ويعانون منها، ولعل أبا الشَّمَقْمَقِ يُعدّ من هذه الناحية شاعر الفقر غير منازع، إذ أكثر من تصويره والإبانة عنه في شعره))[٢٢]،لذلك وردَتْ طائفة من أشعاره وهي تصف ما انتابه من فقر يشوبه حزن، كوصفه حال بيته البائس بأسلوب حزين مثير للشفقة[٢٣]: {من الوافر}

بـرزتُ مِنَ المنـازلِ والقِبـابِ فلَمْ يَعسُرْ على أحدٍ حِجابِـي
فمنزلـيَ الفضـاءُ وسَقْـفُ بَيْتي سماءُ اللهِ أو قِطَـعُ السَّحـابِ
فأنتَ إذا أردتَ دخلْـتَ بَيْتـــي عَلَـيَّ مُسلِّماً منْ غيرِ بـابِ

لأنّـي لمْ أجِـدْ مِصراعَ بـــابٍ يكونُ مِنَ السَّحابِ إلى التُّرابِ
ولا انْشَقَّ الثَّرى عنْ عُودِ تَخْتٍ أُؤَمِّـلُ أنْ أشُـدَّ بـهِ ثيابِـــي

أو نراهُ يصف سوء حظّه والنحس الذي لازمه في كُلّ شيء وهو يبثُّ الشكوى من ذلك، ثم يتوجه أخيراً إلى الفضل يشتكي إليه لعلّهُ يُعطيه شيئاً يساعده على تجاوز بعضاً من فقره(٢٤) :

{من الخفيف}

لو ركبْتُ البحارَ صارَتْ فِجاجاً لا ترى في مُتونِها أمواجَـــا
ولو أنّي وضعْتُ ياقوتـةً حَمْـــ راءَ في راحَتِي لصارَتْ زُجاجَـا
ولو أنّي وَرِدْتُ عَذْبـاً فُراتـــــاً عادَ لا شكَّ فيهِ مِلْحاً أُجاجَـا
فإلى اللهِ أشتكِـي وإلى الفَضـــ لِ فقدْ أصبحَتْ بُزاتِي دَجَاجَا

فهو هنا يندبُ ذلك الحظ العاثر الذي أينما ذهبَ لا يجد ما ينفعهُ، فقد انقلبَتْ معه كُلُّ الأمور التي قد تحصل لبعض الناس كذِكْرِهِ ما يتعلق بالبحر والياقوتة والماء العذب، ولكي يرسم الشاعر لنا صورة واضحة لفقره الحزين جعلَ يُقارن نفسه ويُشبّهها بالخفاش الذي لا يُبصر ضوء النهار(٢٥):

{مجزوء الرمل}

أنـــا بالأهـــوازِ مَحْـــــزُو نٌ وبالبَصْـــــــــرَةِ داري
في بَنـــي سَعـــدٍ وسَعـــدٍ حيـــثُ أهلِـــي وقَـــراري
صِـــرْتُ كالخُفَّـــاشِ لا أُبْـــ صِـرُ في ضـوءِ النَّهـــارِ

وقال يصف فقره وهو يسأل الخبز لأطفاله في شهر الصيام، وقد دنا عيد الفطر(٢٦):

{من السريع}

ما جمـعَ النـــاسُ لِدُنياهُـــم أنفـــعَ في البيتِ مِنَ الخُبْـزِ
والخبـــزُ باللَّحـــمِ إذا نِلْتَـــهُ فأنـتَ في أمـنٍ مِـنَ التَّـــرْزِ
والقَلْـزُ مِنْ بعـدُ على إثْـــرِهِ فإنَّمـــا اللَّـذّاتُ فـي القَلْـــزِ
وقـدْ دَنَـــا الفِطْـــرُ وصِبيـانُنا ليسُـوا بـــذِي تَمْـــرٍ ولا أرزِ
وذاكَ أنَّ الدّهْـــــرَ عاداهُـــمُ عـــداوةَ الشّاهِيْـــنِ لِلْـــوَزِّ
كانَـتْ لهُـمْ عَنْـزٌ فـأُودِي بِهـا وأجْدَبُـوا مِنْ لبـــنِ العَنْـــزِ
فَلَـو رأَوْا خُبْـزاً على شاهِـــقٍ لأَسرَعُـوا للخُبْـــزِ بالجَمْـــزِ
ولوْ أطَاقُـوا القَفْـــزَ ما فاتَهُـمْ وكيـــفَ للجائِـــعِ بالقَفْـــزِ

وقال وهو يصف سوء حال سريره الذي لا كِساءَ له، أمّا حَشْوُهُ فثيابٌ مقطّعةٌ باليةٌ(٢٧):

{من البسيط}

لوْ قدْ رأيْـتَ سريـري كنْتَ تَرحمُني اللهُ يعلـمُ ما لـي فيـــهِ تَلْبيـسُ
واللهُ يعلـمُ ما لـي فيـــهِ شابِكـــةٌ إلّا الحَصيـرةُ والأطْمـارُ والدِّيْـسُ

ولما بلغ الفقر مبلغه عند أبي الشَّمَقْمَق ولازمه مدة طويلة، شعر باليأس فعبّرَ عن ذلك قائلاً(٢٨):

{من الخفيف}

أتُرانِي أرَى مِنَ الدّهْـرِ يَومـــاً لـي فيـهِ مَطيَّـةٌ غيرُ رِجْلِـــي
كُلَّما كُنْتُ في جميـعٍ فقالُـــوا: قَرِّبُـوا للرَّحيـلِ،قرَّبْـتُ نَـعْلِـــي
حيثُما كُنْـتُ لا أُخلِّـفُ رَحْـــلاً مَنْ رآنِـي فقـدْ رآنِـي وَرَحْلِـــي

المبحثُ الثالثُ- مظهرُ الفَقْرِ الساخـــر:

إنَّ السخريةَ إحدى الظواهر المهمة التي طرقَتْ أبواب الأدب، وهي فنٌّ منبثق بطبيعة الحال من الواقع الاجتماعي، فأصبحتْ صدىً لنقد العديد من المساوئ الاجتماعية التي ولّدَتْها الظروف والأحداث التي عصفَتْ بالمجتمع العربي آنذاك، أي ((تسعى السخريةَ في أدوار مختلفة من صورها إلى التعبير عن الكثير من الظواهر الاجتماعية المتعددة، التي تمثّل انعكاساً لفِكر السّاخر وواقعه الاجتماعي الذي يعيش فيه))[٢٩] .

ولمّا قرأنا شعر أبي الشَّمَقْمَق وجدنا أنَّ الشاعر قد عُرِفَ بخطابه الساخر في بعض مواطن شعره، فهو يقصد مَنْ يُعيله مما هو فيه من سوء الحال، فإذا لم يحصل على شيء ممّنْ قصده ووجده بخيلاً اتجه إلى هجائه كلون من ألوان السخرية؛ لذلك((يأتي أبو الشَّمَقْمَق في طليعة الشعراء الـذين صـبّوا جـامَ غضـبهم علـى مَـنْ منعـوهم العطـاء))[٣٠]، كقولـهِ يهجـو ابـن البختكـان[٣١]:

{من الطويل}

ومُحتجِـــبٍ والنّـــاسُ لا يقربونَـــهُ وقدْ ماتَ هُزْلاً مِنْ وَرَا البابِ حاجِبُهْ
إذا قيـلَ: مَنْ ذا مُقبِلاً؟ قِيلَ: لَاْحِـدٌ وإنْ قِيلَ: مَنْ ذا خلفَهُ؟ قِيلَ: كاتِبُهْ

فقد عرض الشاعر وبأسلوب تهكُّمي إحدى مساوئ ذلك المقصود بالسخرية،فمن شدة بُخله لا يقربه أيّ أحد، حتى حاجبهُ أصابه الوهن والحرمان منه، فهذا الحال أشبه بالذي يدفنُ الموتى،الذي لا ترتجي منه سوى عمله وحسب، ولاسيما أنّ المسألة متعلقة بالموت الذي لا مناصَ منهُ،وفي ذلك استحالة، وكذلك قال أبو الشَّمَقْمَق يهجو أحدهم لشدّة بخله، بعدما لم يجد من عطائه شيئاً[٣٢]:

{من السريع}

إنَّ ريـــاحَ الُّلـــؤْمِ مِنْ شحِّـــهِ لا يطمـــعُ الخنزيـــرُ في سَلْحِـهِ
كفّـــاهُ قُفْـــلٌ ضَـلَّ مِفتاحُـــهُ قـدْ يَئِـسَ الحـدَّادُ مِـنْ فَتْحِـــهِ

وهي صورة شعبية لا تخلو من السخرية، فلم يقف الأمر عند إضاعة المفتاح وإنما الحال الذي وصل إليه الحداد من الإحباط في إصلاح قفل ذلك المفتاح مما يستدعي خيبة الظن بذلك البخيل.

وقال أبو الشَّمَقْمَق أيضاً وهو يهجو سعيد بن سَلْم لشدة بخله[٣٣]:

{من الكامل}

هيهـاتَ تضـربُ فـي حديـدٍ بـاردٍ إنْ كنْتَ تطمَـعُ فـي نـوالِ سَعـــيْدِ
واللهِ لـوْ مَـلَكَ البحـارَ بأسْرِهِـــا وأتـاهُ سَلْـمٌ في زمـــانِ مُـــدُوْدِ
يَبْغِـــيْهِ مِنْهـا شَرْبـــةً لِطَهُـورِهِ لأَبَـى وقـالَ: تَيَمَّمَـنْ بِصَعِـــيْدِ

فهنا عرْضٌ لاستحالة كرم ذلك المهَجوّ، من خلال ذِكْر صورة الضرب في الحديد البارد لا الساخن الذي تسهل فيه المطاوعة، كما ذكر أنّهُ لو ملكَ كُلَّ البحار وجاءهُ والده يطلب منه ماءً للوضوء لأبَى أن يُعطيه وسيقولُ له: توضّأ بالتيمُّم، وهي إحدى الصور التي يُبرّر فيها الشاعر ما وصل إله الحال.

ولأبي الشَّمَقْمَق نظرة تشاؤميّة نحو الوسط الاجتماعي الذي عاشَ فيهِ، ومن خلال تلك النظرة يحاول الشاعر أن يُخفّف ولو جزءاً يسيراً ممّا يُعانيه من سوء الحال، فاتجه إلى أسلوب النقد الساخر للتعبير عن ذلك، كقوله في قِلّة صِدْق الناس وكثرة الكذب،وانتشار البخل وانعدام الكرم(٣٤):

{من السريع}

الصّدقُ في أفواهِهِمْ عَلْقَمٌ والإفْكُ مِثْلُ العَسَلِ المَاذِي

وكُلُّهُمْ في بُخلِهِمْ صادِقٌ وفي النَّدَى ليسَ بأُسْتَاذِ

وبأسلوبه الساخر أيضاً يصف حال فقر المعلم وقد قارنه بحال البَقّال، قائلاً(٣٥):

{من البسيط}

خُبْزُ المُعلِّمِ والبَقَّالِ مُتَّفِقٌ واللَّوْنُ مُختلِفٌ والطَّعْمُ والصُّوَرُ

فقد ذكر رغيف المعلم والبقّال، وهو ما يوحي إلى درجة الاختلاف وشدّة التفاوت في الحال، كما يرجع ذلك إلى درجة الفقر والبخل في اللون والطعم والصورة، وهو تصوير ساخر لواقع ذلك المجتمع.

الخاتِمَةُ:

هذه الدراسةُ تكشفُ ما يتعلّقُ بظاهرةٍ اجتماعيّةٍ برزَتْ بصورةٍ جَليّةٍ في شعرِ أحدِ الشعراءِ العباسيّينَ، وهيَ ظاهرةُ الفقرِ وأثرها في شعرِ أبي الشَّمَقْمَقِ؛ لذا نذكرُ نتائج هذا البحث، وهي كالآتي:

١) إنَّ الفقرَ ظاهرةٌ سايرَتِ المجتمعات الإنسانية على امتداد العصور، وقد أسهمَ ذلك فيما بعد في تبلور التنوع الطبقي بين أبناء المجتمع نفسه، ومن الطبيعي أن تطرق هذه الظاهرة أبواب الشعر ليكون مرآةً تجسّدُ أحوال المجتمع ، لذلك اتجه الشعراء الذين أصابهم الفقر إلى وصف بؤسهم وسوء أحوالهم وما كانوا يعانون من ضيق العيش والحرمان الدائم، وفي ضوء ذلك توجّهَتْ هذه الدراسة إلى أحد أبرز الشعراء العباسيّينَ الذين عبّروا عن ظاهرة الفقر في شعرهم، وهو أبو الشَّمَقْمَقِ .

٢) أبو الشَّمَقْمَقِ، هو لقب الشاعر مروان بن محمد، المُكنَّى بأبي محمد، أما ما يتعلّق بحياة الشاعر وأخباره فلم يرِدْنا منها إلّا اليسير، فقيل عنهُ: إنّهُ خُراسانيّ الأصل، وقد نشأ في البصرة وقضى قسماً من حياته في بغداد التي كان يتردد إليها في أيام هارون العباسي، ويبدو أنَّ أبا الشَّمَقْمَق كان سَيّء الحظ، فقد لازَمَهُ الفقر طيلة حياته فجسّدَ ذلك في شعره الذي وصف فيه نفسه وعياله وحال بيته المُتهاوي الذي افتقر إلى أبسط أسباب الحياة، ولم يُفارقه ذلك الحال حتى وفاته سنة ١٨٠هـ .

٣) لقد كان شعر أبي الشَّمَقْمَق صدىً لواقع حاله المرير، كما وجدنا أنَّ تعبير الشاعر عن فقره لم يكن في نمط واحد، وإنما صوّر ذلك الحال من خلال ثلاثة مستويات، وهي(الطرافة والحزن والسخرية)، وقد تم عرض ذلك من خلال ذِكْر وتحليل النماذج الشعرية التابعة لكلّ مظهرٍ وجّهَ ذلك الشعر للتعبير عن ألوان الفقر الاجتماعية، وتصوير الطبقة الدنيا من المجتمع أدقّ تصوير .

٤) وردَتْ بعض أبيات شعر أبي الشَّمَقْمَق وقد اعتمد فيها الأسلوب الفُكاهيّ الطريف للتعبير عن فقره، فقد كان الناس يتهافتون على جمع نوادره، والأطرف ما في الأمر أنّهُ وظّفَ مشهد الحيوان في تلك الأبيات ليرسم لوحة الفقر الذي حلَّ به، مُغلّفاً ذلك بأجواء من الفكاهة.

٥) وردَتْ أيضاً طائفة من أشعار أبي الشَّمَقْمَق وهي تصف ما انتابه من فقر يشوبه حزن، كوصفه حال بيته البائس بأسلوب حزين مثير للشفقة، أو وصفه سوء حظّه الذي لازمه في كُلّ شيء وهو يبثُّ الشكوى من ذلك، ولما بلغ الفقر مبلغه ولازمه طوال حياته، شعر باليأس فعبّرَ عن ذلك في شعره.

٦) لمّا كانت السخريةَ إحدى الظواهر المهمة التي طرقَتْ أبواب الأدب، ولمّا كانت أيضاً فنّاً منبثقاً بطبيعة الحال من الواقع الاجتماعي، فإنّنا وجدنا أنَّ الشاعر قد عُرِفَ بخطابه الساخر في بعض مواطن شعره، فهو يقصد مَنْ يُعيله مما هو فيه من سوء الحال، فإذا لم يحصل على شيء ممّنْ قصده ووجده بخيلاً اتجه إلى هجائه كلون من ألوان السخرية؛ لذلك يأتي في طليعة الشعراء الذين صبّوا غضبهم على مَنْ منعوهم العطاء، وقد ولّدَ ذلك لدى أبي الشَّمَقْمَق نظرة تشاؤميّة نحو الوسط الاجتماعي الذي عاشَ فيهِ، ومن خلال تلك النظرة يحاول الشاعر أن يُخفّف ولو جزءاً يسيراً ممّا يُعانيه من سوء الحال، فاتجه إلى أسلوب النقد الساخر للتعبير عن الواقع الاجتماعي والنفسي الذي يعاني منه.

الهَوَامِـــــشُ:

(١) ينظر: الشعر الجاهلي وقضايا المجتمع العربي القديم: د٠محمد نبيل طريفي، مجلة التراث العربي، ع٣٥-٣٦، ١٩٨٩م: ص٥٥.

(٢) ينظر: البقرة:٢٦٨، ٢٧١، والنساء:٦، ١٣٥، والنور:٣٢، وفاطر:١٥، ومحمد:٣٨.

(٣) ينظر:العصر العباسي الأول- د٠شوقي ضيف:٤٤-٥٥.

(٤) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول- د٠حسين عطوان:٨٥، ورؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري- صغير بن غريب العنزي(أطروحة دكتوراه): ٨٦ .

(٥) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور- د٠شوقي ضيف:٨٩.

(٦) الشَّمَقْمَقُ: الطويلُ الجسيمُ والنشيطُ مِنَ الرّجالِ، ينظر: لسان العرب(شَمِقَ):١٠/١٨٦.

(٧) ينظر:الحيوان:١/٢٢٥،ومعجم الشعراء:٣٩٧،وتاريخ بغداد:١٥/١٨٦،ووفيات الأعيان:٦/٣٣٥.

(٨) ينظر:الكامل في اللغة والأدب:٣/٥،وتاريخ بغداد:١٥/١٨٦.

(٩) ديوان أبي الشّمَقْمَق:٤٣.

(١٠) معجم الشعراء:٣٩٧،وينظر:الأغاني:٣/١٣٥، ١٧٣، ٤/١٦٨، ١٠/٦٦، والأعلام:٧/٢٠٩.

(١١) ينظر:العقد الفريد:٧/٢٣٩،والأغاني:٣/١٧٣،ووفيات الأعيان:٦/٣٣٥ .

(١٢) ينظر:طبقات الشعراء:١٣٠، وفوات الوفيات:٤/١٢٩، وقد ذكر الزركليّ وفاته سنة (٢٠٠هـ)، ينظر: الأعلام: ٧/٢٠٩ .

(١٣) الفكاهة والضحك رؤية جديدة- د.شاكر عبد الحميد:٢٢٠.

(١٤) ينظر:الحيوان:١/٦١،وطبقات الشعراء:١٣٠،والعصر العباسي الأول- د٠شوقي ضيف:٥٤.

(١٥) ديوانه: ٣٢، وينظر: نفسه:٩٨، فَلْيَـهْنَ: فليكنْ مسروراً، جَذْلَتُـهُ: فرحتُهُ، بَنْدَها: الموضعُ الذي تلتصِقُ بهِ .

(١٦) ديوانه:٨٠، مُجَـدَّلاً: صريعاً، أبيض:السَّيفُ، ماضِي الشَّفْرتَيْنِ:قاطعُ الحدَّيْنِ، صَقِيْل: لمّاع، أي الأظافر.

(١٧) ديوانه:٦٨-٦٩، جفلَ: نفرَ وهربَ، خِفاف: باطنُ القَدَمِ على الأرض، السَّراويلُ والتّبابينُ: نوعٌ مِنَ اللباسِ، زَفْن: الرّقصُ، الدِّفافُ: جَمْعُ(دَفّ)، سُلاف: الخمرُ الخالصةُ، نَـازُوْيَه: القِطُّ بالفارسيّة، الرُّعافُ: سيلانُ الدّمِ مِنَ الأنفِ

(١٨) ينظر: حكايات الحيوان في التراث العربي- د. محمد رجب النجار، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد٢٤، ع١، ١٩٩٦م: ص٢١٠ .

(١٩) ديوانه:٨٤-٨٥، أجحرَ: جعلهُ يدخلُ في جُحرهِ، ثُعالَهْ: الثعلبُ، العَضَـارَة: السّعَةُ في العيشِ، بُلالَـهْ: شيءٌ يبلُّ الحلقَ، السِّنَّوْرُ: القِطُّ، طُول المَلالَهْ: طُول الإقامةِ المُضجِرةِ، نـازُ: اسمٌ للقِطِّ، عَلَّـلْتُـهُ: ألهبْتُـهُ، قِفَـار

وبِيـد: أرضٌ لا حياةَ فيها، تَبَالَهْ: اسمُ مَوضعٍ، أنْغصَ الرّأسَ: حرّكهُ إلى فوقٍ وإلى أسفل، كُرْبُج: حانوتُ البقّالِ وهوَ اسمٌ فارسِيٌّ، بَطالَهْ: جَهالةٌ، مَحْبِس: سجنٌ، كفَالَـهْ: ضمانةٌ.

(٢٠) ديوانه:٥٣-٥٤، جِراب: وعاء، الفَخَّارَه: الجرّة، يُنْغِضُ الرأسَ: يُحرّكهُ إلى فوق وأسفل، دَنّ: وعاءٌ طويلٌ، حُبّ: جرّةٌ ضخمةٌ، الكُوْزُ والقَرْقَارَةُ: من الأواني، الجُحَامُ: داءُ يُصيبُ الكلبَ في رأسهِ .

(٢١) ديوانه:٧٢، حَلَقَاً بعـدَ قِطار: استدارةً بعدَ المسيرِ صفّاً واحداً، صَفْقَة: دُفعةٌ واحدةٌ، سِلْقَة: أُنثى الذّئاب، فِلْقَـة: كِسْرةُ الخُبزِ، نَـازُوْيَـه: القِطُّ بالفارسية، صَفْقَة: ضربٌ يُسمَعُ لهُ صوتٌ، أغْبَـشٌ: شديدُ الظلمةِ، بُلْقَـة: سَوادٌ وبَياضٌ .

(٢٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري- د٠محمد مصطفى هدارة:١٧٧.

(٢٣) ديوانه:٢٧، الثَّرى: الترابُ النَّدِيّ، تَخْت: وعاءٌ تُصانُ فيهِ الثيابُ.

(٢٤) ديوانه:٣٣، فِجاجاً: الطرقُ الواسعةُ بينَ جبلينِ، بُزاتِي: مِنَ الطيورِ الجارحةِ.

(٢٥) ديوانه:٤٣.

(٢٦) ديوانه:٥٩، التَّـرْز: الجوعُ، القَلْـزُ: النّشاطُ، الشّاهِيْن: مِنَ الطيورِ الجارحةِ، أُودِيَ بِها: أُهلِكَتْ، الجَمْز: العَدْوُ السريعُ.

(٢٧) ديوانه:٦٤، تَلبيسُ: كِساءُ السّريرِ، شابِكـةٌ: يُضَمُّ بعضهُ إلى بعضٍ، الأطْمـارُ والدِّيْـسُ: الثوبُ والكِساءُ البالي .

(٢٨) ديوانه:٨٠.

(٢٩) السخرية في الشعر الأموي- سالم بن محمد(أطروحة دكتوراه):٣٩٧.

(٣٠) رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري- صغير بن غريب (أطروحة دكتوراه):٢٨٦.

(٣١) ديوانه:٣٠، ابن البختكان: لم أعثر على ترجمته، هُزلاً: مِنَ الهُزالِ والضعفِ، لَاْحِدٌ: مَنْ يعملُ القبورَ ويدفنُ الأمواتَ فيها .

(٣٢) ديوانه:٣٦.

(٣٣) ديوانه:٣٧،سعيد بن سَلْم: لم أعثر على ترجمته، مُـدُوْد: كثرةُ الماءِ أيام مَدّ البحرِ.

(٣٤) ديوانه:٤٢، عَلْقَمٌ: شجرُ الحنظلِ المُرّ، الإفْـكُ: الكذبُ، العَسَل المَاذي: الأبيضُ منهُ، النَّدى: الجودُ والكرمُ .

(٣٥) ديوانه:٥٧.

المصـادِرُ والمَراجِــعُ:

أوّلاً- الكُتُـــبُ العَرَبِيَّـــةُ:

القرآنُ الكريـمُ .

اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د٠محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، مصر،١٩٦٣م.

الأدب العربي في العصر العباسي: د٠ناظم رشيد، دار الكتب للنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٩م.

الأَعــلام: خير الدين الزركلي(ت١٣١٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥/ ٢٠٠٢م.

الأغانــي: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانيّ(ت٣٥٦هـ)، تحقيق: د٠إحسان عباس، د٠بكر عباس، د٠إبراهيم السّعافين، دار صادر، بيروت، ط٣/١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م .

تاريخ بغداد(تاريخ مدينة السلام): أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغداديّ (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق: د٠بشار عوّاد معروف، دار العرب الإسلامية للنشر، ط١/ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م .

الحيـوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥هـ)،تحقيق:عبد السلام محمد هارون، مصر، ط٢/ ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م .

ديوان أبي الشّمَقْمَق: جمع وتحقيق: د٠واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٩٩٥م.

الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول: د٠حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ط٤/ ١٩٩٧م.

الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور: د٠شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢/١٩٨٤م.

طبقـات الشـعراء: عبد الله بن محمد ابن المعتز(ت٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر،(د٠ت).

العصر العباسي الأول: د٠شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط١٦/٢٠٠٤م.

العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربِّه الأندلسي(ت٣٢٨هـ)، تحقيق: د٠عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٩٨٣م .

الفكاهة والضحك رؤية جديدة: د.شاكر عبد الحميد، عالم الفكر للنشر، الكويت، ٢٠٠٣م.

فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبيّ (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: د٠إحسان عباس، دار صادر، بيروت،(د٠ت).

الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ط١/٢٠٠٨م .

لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين بن منظور(ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط١/١٩٥٥م.

معجم الشعراء: محمد بن عمران المرزبانيّ (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: د٠ف٠كرنكو، بيروت، ط٢/١٩٨٢م.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان(ت٦٨١هـ)، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م .

ثانياً- الرَّسَائِلُ وَالأَطَارِيْحُ الجَامِعِيَّةُ:

رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري: صغير بن غريب العنزي، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية/ جامعة أُمّ القُرى، السعودية، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م .

السخريـة في الشعر الأمـوي: سالم بن محمد، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة الملك سعود/ السعودية، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م .

ثالثاً- الدَّوْرِيـَّاتُ(البُحُــوْثُ):

- **حكايات الحيوان في التراث العربي:** د. محمد رجب النجار، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد٢٤، ع١، ١٩٩٦م .
- **الشعر الجاهلي وقضايا المجتمع العربي القديم:** د٠محمد نبيل طريفي، مجلة التراث العربي، ع٣٥-٣٦، ١٩٨٩م .

Abstract

Transfiguration of the manifestations of poverty and social

In the poetry of Abu Achammqmq

The research is a social phenomenon has emerged clearly in the poetry of one of the poets of the Abbasids , a phenomenon of poverty in the poetry of Marian II known as Abu Achammqmq , prime advantage dominant in his poetry is the embodiment of the bitter reality lived and formulate it in poetic images honest and reflective of the real sense of poverty through appearances : wit and irony and sadness , so if we say that Analog Abu Achammqmq Haraeazareth of the most prominent expression of the disadvantages of poverty and the depiction of the lower layer of society , and his hair was ironic revolution mingled with sadness and wit .

Has been our intention in introduce - before you start studying the manifestations of poverty and features art when Ahead - display news through a statement : name and surname , title, and upbringing and his life, and his news with the poets of his time , and others , and his death , and then study included three sections according to the most prominent social aspects of poverty in the hair Dad Abu Achammqmq , namely: Alloy-exotic image of poverty, and II-image of the sad poverty, Cycle - satirical portrait of poverty, has drawn hair dad Achammqmq to express those social aspects of poverty and photographed more accurate portrayal .